إيقاع السرد في رواية (إصرار) لبوشعيب الساوري

المدينة تجدد رداء التخلف

السعيد موفقي

الجزائر

تتضح صورة والدي البطلة بلغة مزدوجة خطابهما "مؤسلب"ينبض بحياة بيئتهما، ورد "على لسان المؤلف / الرّاوي/ الشخصية"(08)، وتنتهي فكرة الصراع بالحضور المباشر للشخصية البطلة كما افترضها السارد في نها ية المتن.

مدينة "كنيخ"الفضاء الذي جرت فيه تفاصيل الأحداث ومنه تنبثق مشاهد الرواية "إصـرار"للروائي المغـربي بوشعيب الساوري، التي بطلها فتاة تجد نفسها مقتحمة عالما متناقضا بدءا بوالديهـا، اللّذان كانا مـصدرا رئيسا لمأساتها الاجتماعية، وتظل صورة المدينة المكان الذي يكشف لها أسـرارا عن الأشـخـاص والعـادات والتـقـاليـد ومـخـتـلف صور البـؤس والحرمان والظلم والتناحر والصراع الطبـقي...تتنقل البطلة بين فضائين، من قـهر العبودية الاجـتـمـاعـيـة إلى مـلابسـات الشـارع، ورغم ذلك تصرّ على تحدي الواقع ومحاولة التخلص من أسـبـاب الشـقـاء في بيـئـة تمارس قيـما بالية، تبحث دوما عن مصدر اللذة بأساليب ديكتاتورية، يحول هذا الواقع البطلة إلى شخصية متقلبة، بقدر ما تعي مبـدأ الحق والواجب غير أنّها تتمرد على ذلك وتنضم في كثير من المناسبات إلى فريق الأذى وممارسة الشر تعويضا للحـرمـان وتـعـبـيـرا عن الـعـصـيـان. رفضا لحـيـاة "كنيخ" رغم نشـأتـهـا فـيـهـا والـتـملص من ربـقـة التـخـلف المركب في هذه المدينة، ورغـبـة في التغيير وتحرير النـمـوذج البـشـري مـثـلـمـا تـبـحـث عن نـمـوذج مـكـانـي متحرر أيضا. وتظل حكاية الـفـتـاة/ البطلة مـسـتـمـرة باستمرار ذكرياتها المؤلمة مـشـكـلة بوجـودها تحـولا مفاجئا بينها وبين واقع أهملها فتنتقم من الجاني والبريء. مـحـددات أخـرى للإيقاع:

من الخطأ أن نعتقد طبيعة الإيقاع شعرية بحكم تجاور الأسباب والأوتاد كما اقتضتها طبيعة الوزن ونسى أنّ الإيقاع من طبيعة اللغة شعرا ونثرا و" علائق الأصوات والمعاني والصور وطاقة الكلام الإيحائية والذيول التي تجرها الإيحاءات وراءها من الأصداء المتلونة المتـعـددة هذه كلـهـا موسيقى"(04) تشكلها عملية تجاور الحـروف والكلمـات ودلالات المعـاني ومـخـتـلف صـيـاغـات العناصر التي تتكون منها مرتكزات النّص الداخلية إذ " أن الإيقاع الداخلي قائم في حركة مكوناته"(05) عند تتـبـع الـتـراكـيـب وتواصل الجمل في بطئها وتسارعها، ومنه يمكن أن نعتبر العملية السردية في نصّ مـا يولّد هذا المسـتـوى الذي تدركه حاسة القراءة العمـيـقـة لدى القارئ ذي العلاقة الطبيعية مع اللغة وأعني كفاءة التأويل والتقدير ودرجة اسـتـيـعـاب الخطاب المتـداول بين الشخصيات وإن امتزجت فيه لغتان أو عـدة لغـات، في رواية "إصـرار" يجـعلنا السـارد نصـغي إلى صـوت البطلة في أزمنة متـبـاعدة ومـتـقـاربة يؤطرها فضاء حقيقي بأسماء متعددة يجملها نوعان من الخطاب، حكائي"و هو العالم الذي تحدث فيه الحكاية...و يخـتص بنقل عـالم مـتـخـيل له زمـان ومكان معـيّنان"(06) وتقتضيه فترة امـتـداد الخطاب الذي تتـواصل به الشخـصيات الجـانبية، في خلفيته الاجتماعية السابقة وبلغة مباشرة وحوار متداخل تفرضه سلطة التلاقي المشـتـرك بين الرّاوي/السّـارد وبين المتلقي، وأمّا الخطاب الثاني الرّوائي، يعـرفـه بـاخـتـين " بكونه ظاهرة اجتماعية لا ينفصل فيها الشكل عن المضمون. فليس الخطاب في الرواية شكلا محضا، وليس هو مجرد حامل لأبعـاد إيديولوجـيـة. بل هو خطاب أدبيّ من أبرز خـصـائـصه أنّه كـلام مـعـقـد البنى..."(07) وبذلك تتـضح طبيعة الشخصيات المدرجة في رواية "إصرار" عندما ينشئ السارد كتلة من العمليات السياقية الجاهزة، مستمدة من بيئة البطلة تتعاقب عليها صورة الحوار الباطني والخـارجي، تستمر البطلة في سرد تفاصيل ذاتية ومن خلالها تتعدد الأصوات، ماضية قريبة وبعيدة:

تتـضح صـورة والدي البطلة بلغـة مزدوجـة خطابهمـا "مـؤسلب"ينبض بحـيـاة بيـئـتـهـما، ورد "على لسان المؤلـف / الرّاوي/ الشـخـصـيـة"(08)، وتنـتـهي فكرة الصـراع بالحـضـور المبـاشـر للشـخـصـيـة البطلة كـمـا افترضها السارد في نهـا ية المتن.

المتن / والنمذجة:

هناك مـقـاربة بين عـتـبـة العنوان "إصـرار" لمتن الرواية وجنس البطل الذي اخـتـاره السـارد "أنثى" وهي إحالة مقصودة تنبثق عنه تفاصيل الأحـداث بدءا بسـرد البطلة لحكاية علاقـتـها بوالديها وما يحـملانه من أسرار، تظل جـهـودها مـوزعـة بين البحث عن خلفيات لقاء أبيها بأمّها وبين طموحها الذي شتته مشاكلهما الطويلة... وفي هذا الخـضم تطرح أسئلة كثيرة وجريئة تفضح بها عالم المسكوت عنه والممارسة الاجتماعية الظالمة، وبذلك جمع السارد بين عوالم ثلاثة تتداول البطلة دراميا، الحرمان، المكان، العادات والتقاليد، "أترك مدينة احـتـضـنتني بدفء لسنوات، على الرغم من أنّ الحياة بها لم تكن عسلا. مدينة أدمنت أزقتها ,كانت أحنّ عليّ من والديّ..."(09).

مفهوم النمذجة:

منذ البدء تتشكل صورة الشخـصية بالملامح التي يرسـمـهـا السـارد وتعكسـها تمظهرات الواقع السردي وتفاصيل الأحداث المتباينة، شخصية البطلة تتدرج في تحركاتها بإيقاعية مـتـواترة تكشف جـوانب درامـيـة تسبقها فواتح مكانية واستحضارات نفسية عميقة:

1 ـ نمذجة الحدث
2 ـ نمذجة المكان
3 ـ نمذجة الشخصية

صياغة الظواهر وفاعلية التأثير:

باعتبار المادة الحكائية "المادة الأوّليّة المكوّنة من الأحداث "(10 أساسا لبناء القصة فإنّ صياغتها تقتضي شبكة من الملاحظات الأفقية والعمودية، ولذلك السارد في متن رواية "إصرار" كـانت قـراءته لمخـتـلف الظواهر يتجاذبها طرفان محوريان :الذاتية والموضوعية، وهو البرناج السردي الذي رسمه السارد لتأسيس وجهة نظر مـحـددة، تتـابع فـيـها تحـولات مـتـرابطة كـمـا اقـتـضـتـهـا شبكة الملاحظات المشار لها، ومن هنا كان لابد من مـقـتـضيات عديدة تفسرها مجموع المقاطع السردية بمفهومها القيمي حيث تتدرج هذه التحولات متلازمة مع تحركات البطلة "انتبهت إلى أنّني جعلت نفسي محبس مدينة ـ كنيخ ـ لسنوات لا أبرحـهـا إلاّ في الأصـيـاف..."(11) إذ نقطة التـحـول مرتبطة بهذا الاستثناء، الذي تترتب عنه تفاصيل أخرى، البحث عن صيغة جديدة للحياة تعتمد تحليلا حجاجيا الغرض منه تبرير قناعة البطلة على الطريقة الحوارية الضمنية يشكل الرّاوي جـزءا من بنائهـا السـردي، وبالتالي يتـوسع الحوار من "الرّاوي والمروي لـه " لتكتـمـل صـورة النضج لدى الشخـصية المتـخيلة وتكون ذات فـاعليـة وتأثيـر في توزيع المشـاهد وفق بناء متدرج"يعني أن تتكرّر البنية ذاتها في المقاطع السردية المتسلسلة والمتـوازية. وبتكرارها ذاك تزداد نموّا"(12) "مع يوم الامتـحـان. كنت لا أعتني بمظهري الخـارجي وأحـرص على أن أصـير شـبـيـهـة بالمتشـردين. أثيـر الشـفـقـة في قلوب البـعـض والخـــوف في قلـوب الـبـــعـض الآخر"(13). إنّها الرغبة في التغيير المزدوج وفي الوقت نفسه دعـوة إلى التحول في انتظار مشهد مخالف كما تعتزم هذه الشخصية الوصول إليه، بلغـة مـزدوجـة أيضا، تحـقـيـقـا لحلم قـديم والسـيـطرة على فـراغـات متشابهة، استغلتها حدود فوضوية في تنظيم العـقـل والهـيـمـنة على الذّهنية المتخلفة.

خاتمة:

ما يمكن اعتباره فاتحة للقراءة لولوج عـوالم هذه الرواية، يـبـقى مـفـتـوحـا لقراءات أخرى مفتوحة أيضا، باعتبار "إصـرار" وجـهـة أخـرى لمعنى الذات والاسـتـمـرار و المقـاومـة، ولعل تغـيّر المكان في ظل مـلابسـات الأحـداث وتناقض المواقف وقـسـاوة الواقع، أفـرادا وجـمـاعـات يكون ـ في نظر البطل / السـارد ـ هو الأهم لتـبـليغ الخطاب بلغة طبيعية كما اقتضتها الحـيـاة الطبـيـعـيـة أيضا بالرغم من إصرا ر الآخر أيضا.

هوامش

(1) ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط الثالثة 2002ص 155

(2) شلوميت رايمون كنعان، ترجمة :لحسن أحمامة، التخييل القصصي، الشعرية المعاصرة، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط الأولى 2010ص 171.

(3) محمد بوعزة، تحليل النّص السردي، تقنيات ومفاهيم، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الإختلاف، ط الأولى 2010 ، ص 92

(4) أدونيس:مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، ط2، ص:140.

(5) يمنى العيد:في معرفة النص، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1985، ص:100.

(6) معجم السرديّات، ص :175

(7) معجم السرديّات، ص:175

(8) (نفسه، ص:185)

(9) إصرار، ص:04

(10) (مجموعة من المؤلفين) إشراف محمد القاضي، معجم السرديات الناشرون :دار محمد علي للنشر ـ تونس، دار الفارابي ـ لبنان، مؤسسة الانتشار العربي ـ لبنان، دار تالة ـ الجزائر، دار العين ـ مصر، دار الملتقى ـ المغرب، ط 01 ـ 2010، ص 363

(11) إصرار، ص :05

(12) معجم السرديات، ص:56.

(13) إصرار، ص:97

قيد وطن: اللجوء للترميز لاستحضار مسميات غائبة

سيرة الشاعر على صفحة الوجع

عباس مزهر السلامي

بابل

(قيدُ وطن) الصادرة عن دار رند للنشر والتوزيع في العاصمة السورية دمشق هذا العام مجموعة شعرية لكامل حسن الدليمي، تبدو وكأنها سيرة شاعر ثائر، ومدافع عن وطنٍ تمنى أن يراهُ بصورة الأوطانِ الأخـرى.. هذا الوطن الذي داستهُ السُرفات وتناوشتهُ الحراب، وطنٌ بكل جـراحاته اسـتـحـوذ على شاعرية الشاعر (وطني فديتك شيوخ الدنيا، فـديتُكَ بي...، وأنتَ تُكابر رغم نزيف جراحك)، فالقصيدة عند الدليمي لاتولد الاّ بشحـذ الحـروف، ومـاهي الاّ ضغطة على زناد القـصـيـدة فـتـكون المواجـهـة، كـجـزء من منظومـة الشاعرالمسيطر عليها (كلّ صباح، تقـضـمـني الحـارة، تقـذفني لرصيفٍ ساخن، جُندي خسر جميعَ معـاركه، فاعتزل الحرب) ليست بالتأكيد معركته بل هي مـعـركـة الوطن الخـاسـرة، اذ نتلمس من المقطع اعـلاه وهو من نص (رأس المنصور)،

عمليـة اسـتـحـضار لتلك الرموز التي تهاوت، أو محاولة استنهاضها (صلاح الدين، هل يصـحـو من غـفـوته، أم آثر نومته الأبدية؟) عبر سرد يتوالى بتوالي الأحداث، وكأن اسـتـرجـاعـها بمثـابة الإدانة للنازيين الجـدد اللذين أحـالوا الوطن رمـــادا،فكيف اذن بمقـــدور الشاعرأن يوظفها شعريا، ويـجعل من تلك الأحداث محفزة لهذا التوظيف؟وهنا تاتي تهيئة الشاعرللمناخ الذي يتواءم وتلك الأحداث،ليستقري بألفاظ الأسى والمرارة حـزن الوطن وجـراحـاتـه. (وفيروز الصوبين، أما زالت تنشدُ بغداد بكل صباح، أمْ سبحت بالحزن؟؟

لقراءة أغلب نصوص هذه المجموعة لا يحتاج القارئ إلى عمق معرفي، أو الى رؤية نقدية معمقة لإكتشاف اختلالات الوزن فيها جراء استخدامه لتفعيلات الرمل، الخـبـب،المتـدارك (التي هي في الأصل متـقـاربة وكأنها تدورفي فضاء شـعـري واحـد.) وتداخلهـمـا في بنيـة النصـوص، أو الـتـوصل الى مـاتوحي اليـه، فـمـوضـوعـتـها الرئيـسـة هي (الوطن)، التي استـهلكها من قبل شعراء كثر،لكننا هنا والحال المختلف يفرض علينا أن نـحـدد الدوافع والإنـفـعـالات، والأهم من ذلك الفـترة (مابعـد نيسـان /أبريل 2003) التي كانت هي المنتجـة لتلك النصـوص، خـاصـة وأن وطن الشـاعـر، هو وطنٌ مُـحـتـل، يراهُ وقـد تصدعَت هيبته، واستبيحت أراضيه، ودُنسَت مياهه، وسُرقت خيراته،لذا استَوجب علينا ونحنُ نقرأ النصوص، أن نقف على المعنى الذي أشـار إليـه (ليـتـش) في تصنيـفـه لأنواع المعنى السبعة، لنتوقف عند معنيين منها، وهذا مايعنينا في المجـمـوعـة منها وهو (المعنى الصريح)،الذي رسمتهُ اخبارية مـضـامين النصـوص، والمبـاشـرة في توصيلها، وان بدا المعنى فيها وحيد الدلالة، (والمعنى الإنفعالي) الذي شكلتهُ عواطف الشاعر، ومشاعرهُ الجيّاشة، من خلال النبرة الحادة، والنغمة المتصاعدة، والنطق الحـمـاسي، ولتـداخل المعنيين (الصريح والإنفعالي)، ولأن الأول منغلق على موضوعته، والثاني منفتح عليها، لهذا بدا كلام الشاعرالمكتوب للقارئ وكـأنهُ كـلامٌ شفـاهي، أكـثـر منهُ كـلامٌ تحريري،حيث تحيلنا قراءة النصوص (اباحية شيخ،أغنية كبير الكهنة،رأس المنصـور) إلى مـجـمـوعـة من ألفـاظ محمومة، لا إلى معانٍ موسومة،كما نتلمس ذلك في وصـفـهِ لهـذا الشـيخ: (يصلي بحـشـود مـريديه، في حـضـرة دولار، لايشربها الاّ صرفاً ومعتقة من كف غلام أكحل، أمرد،أخرقْ)،

وهنا لابد من الإشـارة للفـتـرة بكل تداعـياتهاالتي كُتبَت بها المجموعة، ونـتـبـين سلطتـهـا أي سلطة الواقع وهيمنته على النصوص، حيث كان الشاعرُ فيـهـا مُسيَّراً من مـا يمكنني تسـمـيـتـهُ (نص الواقع / النص الإنفعالي)، فما أن يشرع الشاعر في كتابته حتى تسحبهُ تحولات الواقع المتسارعة، وطبيعة المرحلة الغريبة، التي نمر بها لتـفـرض على الشـاعـر تعاملاً مختلفاً مع الكتابة، حيث تتغلب بالتاكيد نزعة الوطنية في اطار كتابة متـحـمسة، أساسها اسقاط صورة الحاضر (البهي)بكل ميزاته المفترضة التي ماتحققَ منها سوى الخراب!

عادةً ما يتنمط الشعر السياسي بالواقع، ليجعل الواقع هذا من الشعر السياسي نتاج مرحلة ما،وينمازعلى غيره من الشعر باللغة المألوفة بالفاظها التي فرضها تبدل الخطاب السياسي الذي أدى إلى حلول لغة جديدة محل لغة قديمة تشكّلها مفردات اليومي المعاش، فتعامل الشاعر مع لغة جديدة يعايش بها الواقع، هي احدى سمات الكتابة الجديدة، وخاصة الكتابة الشعرية كما أشـار الى ذلك تودروف (اتجـاه الأدب نحو اللامعنى واليومي)،وعلى الرغم من ذلك فإننا قلّما نجد شعراً من هذا النوع يسـتـقـر في الذاكـرة.وإن تصـاعـدت حـدتهُ،لأن رؤيتنا تجـاه الأحـداث قـد تغـيرت بتـغـيرها الدراماتيكي غير المتـوقع، (أو تسمع...؟ حشـرجـة المدن المبوءة وأنين شـوارعـهـا، وصـراخ كنائسـها ومعـابدها، وا معـتـصـماه ولامعـتـصم، وامعـتـصماه، ومعـتـصم خشي الطوفان، ألقى بجميع مصاحفه، راح يفتش عن ركنٍ يأويه)

لذا فـالمعنى المرجوُ من القـراءة، والذي يتطلب جـهداً لإستكشافه عبر الإصرار في طلبه، (كما جاء في رأى الجرجاني)، كي نتحصل على متعة استكشاف المعنى الغـائر خلف ظاهرية الألفاظ،لم يتحقق، لذا ما وجدنا الا المعنى الإنفعالي، (كان يُحـاذر أن يسـقـط بين أكف آدمنت التصفيق) ولا جهد في اكتشاف دلالة التصفيق في زمننا هذا.

على الرغم من اسـتـحـواذ الوطن على مساحات واسعة من ذات الشاعر، الا أننا نرى كائنا آخر يتداخل والوطن في الذات الشاعرة، ومن غير المرأة تلك التي تتـمـاهى صـورتها حـد الـتـوحـد مع صورةالوطن المعشوق. تلك المرأة التي جسدها الدليمي في أحد نصوصه ومن هي ان لم تكن (ابنة الجـيـران) الأقرب، ومن أشبه بحميمية الوطن سوى البيت، (كان يُبادل جارته غزل العصفور، وفي الغلس يمدُ يديه لموقدها طمعاً بالدفء) فـهـذا النص لاشكّ يحـاكي حـزن ابنة الجيران، وحزنه بعد أن تبدلت صورته هو وتغيرت ملامحه.. اذ (لم تُبقِ الريح لهُ سـبـابة أو ابهـام)، وجـارتهُ (قـرأت بالأمس على ملأ فاتحـة فحولته)،وبذا توحدت الأحزان، حزن رجل بلا فحولة، حـــزن المرأة التي يـزأر بموقـــدها الرماد،حزن الوطن الذي يذبح الموجُ فيه الشطآن،ودلالة تلك الجـمـل ومـا تـوحي اليه تجسدها جملة خاتمة النص (وفيه تُمد يد الغدر لموقد بنت الجيران) دالة الغدر، دالة متصلة تومئ ان هناك بلدا ينتهك.

مـجـمـوعـة قـيـد وطن، راحت أغلب نصوصها تشي بالبساطة،فانسابت مـفـرداتها بين الوضـوح والمبـاشـرة، لاغموض فـيـها الاّ في بعض ما حاول الشاعر احاطته بالترميز، خاصة تلك النصوص التي تناول في مضامينها قـضـايا دينية، ومـواقف ايدولوجـية، وبهذه الأحاطة يكون الشاعر قد انتهج التمويه كوسيلة للإبتعاد القسري عن تناول الرمز الديني، والرمز السياسي، والرمـز الإجـتـمـاعي، الآ بما يتـمـاشى وأخـلاقـيـة المجـتـمع الجـديد وثقافته الدخيلة. فالترميز ربما يكون منجاة في بلد الموت، لكننا نجد الشاعر في أحايين كثيرة لايرضخ او يصطف مع مايتماشى نتلمس ذلك في ألفـاظه الســاخـرة، واللاذعـــة الطرح، (على الكوة وشم أصابعه، وعلى الجدران مرايا علّقها ومـضى لسـرير المتـعـة) نص (ملائكة اللذة)

،وقوله: (انتفخت كل خزائنه حتى حلمة نار جهنم،نار تملأ شدقيه) (هنا الحلة)، ومن نفس النص أعـلاه: (جـرح الحلة يعنيني كما يعنيك، عجّل اقصاء ملوك الرقص القادم، من حانات شوارع باريس وشيكاغو)

وخلاصة القول نستنج من كل التاويلات المسبـقة تداخل الرموز في النصوص، فـالشـاعـر وحـده بامكانه مـجـاورتـها دلاليا،بما يعززوحدة الطرح،

يشكلها، يجـاورها، يدخل، أحـدها، أو جـمـيـعـها ضمن بنية النص، يحـاورها وكأنها مجسدة أمامه،ليحرك بها ومن خلاها خطابه الشعري الذي يميزه .فاذا كانت التأويلات تتدفق أزاء استحضار الرموزبكثافة،فان المضامين ستغدو أكثر وضـوحـاً لكن هذا الوضـوح لايفـقـدها التأثير. وايصال ما أراد الشاعر قوله.

> على الرغم من استحواذ الوطن على مساحات واسعة من ذات الشاعر، الا أننا نرى كائنا آخر يتداخل والوطن في الذات الشاعرة، ومن غير المرأة تلك التي تتماهى صورتها حد التوحد مع صورةالوطن المعشوق. تلك المرأة التي جسدها الدليمي في أحد نصوصه ومن هي ان لم تكن (ابنة الجيران) الأقرب، ومن أشبه بحميمية الوطن سوى البيت، (كان يُبادل جارته غزل العصفور، وفي الغلس يمدُ يديه لموقدها طمعاً بالدفء) فهذا النص لاشكّ يحاكي حزن ابنة الجيران، وحزنه بعد أن تبدلت صورته هو وتغيرت ملامحه.

ثقافة المركز وثقافة الأطراف

علي محمد اليوسف

الموصل

في سبعينيات القرن المنصرم كان هناك شاعرا عراقيا يقطن مع عائلته احدى المدن العراقية بعيدا عن العاصمة بغداد . وجد نفسه يتحرق لما تصبو له نفسه، لكن يعدم امامه مستقبله ان لايجد من يسنده ويسوقه ليتساوى بغيره على الاقل من عديمي الموهبة الثقافية وصوليي وانتهازيي الفرص وتسلق السلالم والاكتاف... كان مقتنعا انه مغبون ولم يأخذ استحقاقه. وجد نفسه كشاعر فقط ما يجعله يلغي حاجز الشهادة الجامعية كمؤهل.

بنظرة فاحصة متاملة وجد المدينة مقبرة لدفن كافة الطاقات المبدعة، كما وجد الغنغرينا الانتفاعية تفتك بالوسط الادبي والثقافي والاجتماعي كما يفتك (الخيسان) بساق المبتلى بداء السكر الخبيث، وان مجتمع المدينة التي ينتمي لادبائها ومثقفيها ,لايفخر بكفاءاته ومبدعيه الحقيقيين، ولا يتبارى المتنافسون على وفق روح رياضية واخلاقية شريفة، بقدر مايعمدون وباصرار منقطع النظير وعجيب هو امتداد لتجذير التخلف في النفوس ، وتسويق التافه السطحي الذي يوهم الناس بقناعة ان الحياة بكل بؤسها وانحرافاتها قدر وجبرية كان الغزالي عبر عنها منذ عشرات القرون (ليس بالامكان ابدع مما كان) وكانت ولا زالت الطاقات الابداعية في محافظته في مختلف شؤون الحياة المحظوظ منها يجد نفسه في مقولة المتنبي (غريب اليد والوجه واللسان) وسط مجتمع يعشق العد التنازلي إلى الوراء بمتواليات رياضية وهندسية معا. المثقف الجاد أو صاحب الموهبة هو اشبه بالاستاذ الذي يلقي محاضرات بالفيزياء والكيمياء والرياضيات في صفوف محو الامية... وربما يكون قد خانني التعبير عما اريد توصيله، فليس جميع من يحملون شهادات عليا وجامعية اصبحوا اليوم قادة تغيير وتبديل مجتمع علميا وحضاريا. اذ يذكر المفكر المصري زكي نجيب محمود انه حين ذكر امام استاذ جامعي مصري مطلع الستينات من القرن الماضي ان الغرب سينزلون الانسان على سطح القمر، اشاح الاستاذ بوجهه عنه مستعيذا بالله من هذا التخريف.

نظرية كوبرنيكوس في مركزية الشمس اصدرها بكتاب ظهر عام 1534م، ومن بعده جاء نيوتن ابو الجاذبية ، النظرية العلمية، البديهة المعروفة، ان الارض تدور حول نفسها في (24) ساعة محدثة الليل والنهار، وتدور حول الشمس ايضا في مدة زمنية مقدارها 364 وربع يوم محدثة الفصول الاربعة . تعقيبا على مركزية الشمس كحقيقة علمية كونية، تساءل استاذ جامعي بسذاجة فاضحة مضحكة، لماذا لا يتساقط الناس والمياه ومكونات الارض اثناء دورانها!؟ على سذاجة وسخف وتخلف السائل، فان جاذبية الارض، مركزية الارض، هي التي تمنع التصدعات والانزلاقات من على سطح الكرة الارضية وتمنعها من السقوط في السديم الفضائي.

وفي كل الاحوال وطأ الامريكي ارمسترونغ ارض القمر في تموز 1969 . وحين اجبرت الكنيسة (غاليلو) التراجع عن مركزية الشمس، واحرقت كتبه تمهيدا لحرقه... قال وهو يخرج غاضبا من قاعة المحكمة، يضرب الارض بعكازه في عصبية ، ولكن الارض تدور سواء اقلت انا ذلك ام لم اقله، وسواء صدقها غيري أو انكرها!!.(1)

اعود لصاحبنا الشاعر، وجد مدينته لا تحتضن مثقفا جادا ولا تهتم به وابداعاته الا في ساعة تأبينه بكلمات الرثاء. لذا امتد بصره في تطلع ذكي نحو العاصمة بغداد واهتدى إلى الحل الواقعي البراجماتي المطلوب لتحقيق طموحاته، واشباع تطلعه ، فبدأ ممارسة النضال الثوري على النمط التقليدي، سلم النفاق والمداهنة في حرق المراحل والوقت والوثوب من مرتكز هدف مرحلي صغير إلى هدف مرحلي اخر بوثبات كنغرية باقل جهد واقصر وقت. فوصل بغداد في فترة وجيزة في سباق الماراثون، واستلم مسؤولية مرفق اعلامي كبير وحساس في بغداد، مما اثار حفيظة المتطفلين، واعجاب وحسد الحاسدين ،بعد مدة قصيرة استلم وظيفة حكومية خارج العراق، في عاصمة اوربية ، والتقى هناك بالزمالة الثقافية، رائد الشعر العربي الجديد (شعر التفعيلة) عبد الوهاب البياتي، المعين على ملاك سفارة العراق بذلك البلد على الورق فقط، بوظيفة وهمية مستشار ثقافي او صحفي، امضى البياتي في تلك العاصمة ابان نظام صدام حسين ما يقرب عقدا من الزمن، في التسعينات اراد تزكية نفسه لعل وعسى يرشح لجائزة نوبل التي لايستحقها ولا حتى الترشيح لها الا فقط بمقاييس الناقد السوري المقيم بلندن (خلدون الشمعة) حين كرس قلمه النقدي من اجل مساواة (البياتي) بـ (نيرودا) وخاب فأله امام صعوبة المهمة. طلب البياتي بعد عام 2003 اللجوء السياسي إلى سوريا لتكملة مشواره نضاله السياحي وتوفي فيها.

يروى والعهدة على الراوي انه في جلسة خاصة مع الشاعر الذي جمعته باصدقائه المقربين الفضوليين سألوه قبل مغادرته العراق، كيف وصلت لطموحك الشخصي!؟ اجابهم بمنتهى الصراحة: استعمل ذكائك في الوصول لهدفك باسلوب عملي براجماتي ، واستخدم لذلك الهدايا بجميع اشكالها وانواعها ، كذلك بناء علاقات انتفاعية خاصة مع المتنفذين في بغداد في مجال طموحك، التضحية ببعض المال وتحمل التعب وعدم اليأس في السفر الدائم المستمر ذهابا وايابا ما بين العاصمة والمحافظات في التمهيد لاستقرارك في العاصمة، واذا لم تجد كل هذه الوسائل مفيدة فنصيحتي للمغيبين المهمشين المغدورين الذين يمتلكون مؤهلات اثبات وجودهم ولاتتاح امامهم الفرصة ببلدهم، عليهم السفر خارج العراق، ومن هناك وبجهده وطاقته الابداعية يفتح له (كوة) صغيرة يطل منها على الساحة العراقية، بعدها سيجد نفسه عاد بجواز مرور الحفاوة والترحيب واعطائه اكثر مما يستحق من الوجاهة والشهرة كرمز ثقافي – ادبي، يدخل العراق من اوسع ابواب تسليط الاضواء عليه، كان الرجل في منتهى الصدق مع النفس والاخرين ايضا.

هامش(1) نشر احد الامريكان نهاية عام 2011 على الانترنت فيلما توثيقيا مصورا ينكر فيه ان الانسان قد نزل على سطح القمر حقيقة ,وانما القضية مفبركة بمجملها!!؟